خبايا المرأة

الموت خنقا بحبال المحبة!

تيليات

سلاسل من فجر قيدها . وبنور الحب سد أفقها . . وسقط ظله عليها ونسج لسانها . . فغزلت له جلبابا بخيوط حنانها . . فطرق بخفقات قلبه عشها . فخفقت بجناح الحبة حريتها . . ومشت في ظله . . وعاشت في ظله . . وعشقت ظله . إلى حد أن ذابت فيه وصارت ظل ظله . . وسلاسل من ليل قيدت فجره . وبظله طوقت نوره . فسقطت الشمس في الفخ . وأصبح نورها أسير ظلها . وأشعتها قضبان سجنها . . فمن نصب فخا لامرأة وقع فيه . . ومن بسط جناحيه عليها عاش بين سجن ذراعيها . إلى أن تخلع روحه عن جسده . ويفارق ظله جثته .

ولد شهر سبتمبر ١٨٦٢ تزوج الكونت ليون تولستوى (٣٤ سنة) صوفيا بيرز (١٨ سنة) . ومن شدة حبه لها غار عليها ومن شدة حبها له غارت عليه . ومع الدلاع نيران الغيرة نشبت معارك الحب . فتولستوى يحاول أن يروض زوجته . ويكبح جماحها . ويكبت كل انطلاقة لنشاطها . وهي تأبى الإذعان له . وتتمرد على استبداده خوفا من أن يطحن كيانها . ويمحو شخصيتها . ومع سقوط الحليد فتحررت صوفيا من هدوء الريف وعطر الشجيرة الذى يفوح من زوجها ومن بيته . وانطلقت إلى موسكو . وإلى بيت أبيها وإلى أمها وأخيها ثانيا . لا ليزيا التي حطمت هي فيما عرسها . كما ذكرت في الأسبوع الماضي

القبلة المغتصبة !

وتوافق تولستوى بعد ثلاثة شهور زواج . على أن يعود إلى موسكو مع زوجته لترى أهلها . وليقضيا أعياد الميلاد ورأس السنة معهم . وأقاما في فندق لاق شقة الكرملين حرصا على مشاعر ليزا . وخوفا عليها من أن تموت غيظا إذا رأت سعادتها الصاخبة ومعارك حبها الضارية .

وبقدر ما فرحت صوفيا برؤية أهلها . وبالذات أمها وثانيا . أخيت لخيبة أمل . . إن بيت أبيها . عشها الذى كبرت فيه . ورضعت فيه الحب والحنان . لم يعد عشا تعرع وترتع فيه . بل بدا لها كصحراء جرداء لا عيون ماء وظل . ولكن لا مازها يروى . ولا بلحها يشبع . . إن جدران بيتها تستقبلها بفتور . وأفرع المقاعد ترحب بها كغريبة . والنوافذ تنظر إليها كغريبة . وحجرتها بعد هذا العمر الطويل تتبرم من وجودها . وسريرها بعد عشرة غالى عشرة سنة شاركها فيها نومها وسهدها وأحلامها وكوابيسها . انقلب عليها فجأة . وأعطتها ظهرها وتركها . ورفض أن ترجع إليه وطفلتها بالثلاث .

سرير خائن حقا . . ومن لا يخلص لي لا أبال به . . ومن لا يوفرني لا أوفره . . ومن لا يأخذني كاملا في عينه لا أعطه نصفا في رجل . . ومادام عشها القديم يبذها . بل يكفل حجارته بقطعها تماما كما قطعتها أمها من قبل . فلتصر له ظهرها ولتعامله لا بالمثل . . عشها الحقيق هناك في بيتها . في غرفة زوجها . . لا مكان فيها وسط هؤلاء الناس الذين كانوا من قبل حياتها وكل دنياها . الحفلات الراقصة لم تعد تغريها . لزيارة القديمات لم تعد تستمتع بها . الفتيات الشابات لم تعد تسليها . وكلامهن المصنوعة سم ناقع على قلبها . فحديث زوجها فقط هو السحر الحلال . ولكنه مشدود رصيدها إلى موسكو . يتركها طوال النهار في بيت أبيها لتجرى وتمرح مع أصدقائه . وتجرى قدمها وركبت في يوميا . . فتعود فورا إلى الغربة . حيث ليوفوتشكا يعيش معي ولي . حيث أنا وحدى أتمتع به ولا أحد يشاركني فيه . أحب حياتي معه في الريف . ولن أتبادل بها حياة أخرى أيا كانت .

وتولستوى هو الآخر غير سعيد بوجوده في موسكو . فهو لا يستطيع أن يحبس زوجته في الفندق ويحبس نفسه معها . ولا يستطيع أن يمنعها من زيارة أهلها ومنع نفسه من زيارة أصدقائه . ليبقى إلى جوارها ويحرسها بعينه . ويحميها من عيون الذئاب التي لا هواية لها سوى صيد النساء بشبكة من النظرات . وسخط على نفسه وعليها . وتمنح نفسه هواء بريئا لست حدها . ونظرة طائرة هبطت على ذقنها . وكلمة حلوة مدحت فستانها . ليتعس عينيها ويتكد عليها أيامها

وفقد أعصابه في إحدى الحفلات . حينما رآها ترقص مع ولبفانوف . الضابط الشاب الوسيم الذى كان يحبها ويرغب في الزواج منها . والضجر فيها حينما طلبت منه يوما ألا يسهر مع أصدقائه . وبالقطع بعد أن يصرخ ويرعق . يهدأ ويحتقر . . ثم يسجل قلبه المعركة التي انتهت بلا غالب ولا مغلوب . ويقول . (٨ يناير ١٨٦٣ : تشاجرنا ثم تصالحنا . . وكنا نعتاد عادة بعد كل مشاجرة . تضايقت من نفسي أشد الضيق . والسبب هذه القبلات التي ليست في الواقع سوى ترميم للشرخ بجبس معشوش . . بعد العشاء تشاجرنا حينما انتهيت الخيطان على رأسي . . دموع وتشنج وغثيان دم وثورة أعصاب . . أقوى دليل على حبي لها أني لم أضرب . البقاء إلى جوارها في البيت شيء لا أحتمله ولا أقدر عليه . . أحبني بعذابها . ولكني أنا أيضا أتعذب . وعذابي يفوق عذابها بكثير . ولا أستطيع أن أقول لها شيئا . وفضلا عن ذلك لا يوجد شيء يمكن قوله . .

لدغات الزمن

وبعد يومين تركها في الصباح في الفندق . بعد أن وعدها بأن يتناول الغداء معها . . ولم يخرج من حجرتها . وانتظرته وأرهفت السمع بانتظارها . . وأرهفتها الساعة بانتظارها . ولم تفعل شيئا . وفكرت فيه وفي نفسها . . ألم يكن من الأفضل أن يبقى إلى جوارها ؟ . . ما معنى جريه يمينا وشمالا بهدف أو من غير هدف ؟ . . ما معنى انشغاله

بأعمال حقيقية أو واقعية ؟ .. لا شيء في الدنيا يستحق منه

هذا التعب . ويتساءل أن يجري وراءه هذا الجري . إن حياته هنا إلى جوارها .. وتجمعه هنا بين رموش عينيها ودائرة ذراعها ..

صدق الفيلسوف بإشكال حينما قال : « شقاء الرجل في الدنيا مصدره شيء واحد . هو عدم قدرته على البقاء في حجرة بمفرده ويسكون » . وظن الفيلسوف الفرنسي أن شقاء المرأة في الوجود مصدره فشلها الخارق على البقاء في زواياها في انتظاره عودة مصغورها الطيق إليها .

وفي الساعة الواحدة أغلقت سونيا أذنيها للباب . وارتفعت حظرات زوجها . ولم تسمعها .. فتلفت أظافرها . وفي الساعة الثانية فقدت ميناها على مقبض الباب . وانتظرت أن يظهره بقبضة يده . ولكن المقبض لم يطاطئ رأسه وظل كما هو شامخا . فمشت غاضبة وتضجرت . وفي الساعة الثالثة وقفت عصافير بطنها من الجوع . فلعنت ربابها وأخرستها .. وفي الرابعة وجدت مجاهل الليل على يديها وقدميها . فأبادت جيوش الليل وقطعت أصابعها . وفي الخامسة أحضرت الخادمة الشاي . وسألتها إن كانت حاجة إلى شيء . فلم تقل لها إنها حاجة فقط إلى زوجها لتدخنه وتشرب من دمه . وفي السادسة هجم الصداع على رأسها . فوسدت إلى زوجها الغائب أن يستقيها كفنه لتسند رأسها عليها . فسمعها وهو على بعد عشرين ميلا . وهز لها كتفيه من بعيد .. وفي السابعة رأت من خلف زجاج النافذة عربة حمل تقترب من المنزل . أخيرا فرحت . وفرحة لم تتم . فقد واصلت العربة سيرها . وواصلت الحمل تقترب بحوافرها أسفلت الشارع . فانصدمت الحوافر بحائطها . فهشمتها بفتحان شاي بارد . وفي الثامنة عرفت أن الزمن جلاد قاسي القلب لا يرحم المحكوم عليهم بالانتظار .

وفي التاسعة اختلت . فتحت نافذة زواياها . فأفاض فيها الليل وجهه الساهم والنجوم . وقالوا لها جميعا في صوت واحد : « اسكتي لقد تعبت مسامعنا من شكاواك ! » . فسكتت خوفا من أن تلوث الهواء بأنفاس عليلها . ونظرت إلى الأشجار وزواياها الرطب . فالتاج يكسوها بكفن أبيض . نفس مصيرها لو لم يعد زوجها فورا . وأغلقت النافذة وحلمت قسائيا . وتكلمت بقميص نوم أبيض استعدادا لموتها . وجبت عاصفة من الشتائم على شفتيها . ولمع برق الشر في عينيها . وارتفع صوت الرعد من كل مساميها . لقد عاودته الحنين إلى حياة القسق واللاعلاقل . إنه ذهب إلى الحجريات ليستمع إلى غنائين . إن الحرية كانت عليقته الساقطة الحلس الآن على حجره . وتمنى له أخيته الفضلة . قال لي نادلا : « وبين مقطع وآخر يهمس في أذنه بأنه رجل حياتها . وحضره يوشوشها . ويستسلم لسحرها .. ان يعود إليها . سوف يحجرها ويعيش مع حجرية مدة سنوات

وفي الساعة العاشرة شبهنا حواظرها السوداء . وعرفت أن شهادة البلاد هي أكاذيب في تاريخ كل البشر . فعمرها الآن مائة وتسعون سنة لا تحاول عشرة سنة كما تقول شهادة ميلادها . وفهمت ثانيا ترفض المرأة أن تقول عمرها حتى لا تكذب وتذهب إلى جهنم

وذهبت وجدات حظرات حزينون معصرة . من النافذة إلى الباب أو منه إلى المرأة . والتقى ظهرها وتقوس . وتخلخلت أسنانها وسقطت . وعاشت بلا أمل في صحبة الخيطان .

وبعد منتصف الليل بقليل ، وقفت عربة حمل أمام باب المنزل . ونزل منها تولستوي . وتمكنه المحررين والمحررات تقدمت سونيا في السرير . وضبطت إيقاع أنفاسها . وتظاهرت بالنوم العميق . ودخل تولستوي الحجرة على أطراف أصابعه . ووضع قبلة بيضاء على خدها الأحمر . فبدت أنيابها من جديد . وضغرت مائة وخمسين سنة .. واستمرت في ضبط إيقاع أنفاسها .. ولا تشقق جفنها وارتفع هدير شخيره . وتأكدت أنه في سابع نومة . عاد إليها شبابها . وقررت ظهرها . ونفضت خيلها . ثم بعد خطة عادت إليها طفولتها . وأصبحت طفلة في السابعة من عمرها . فا يد كيد الفارين . وبكلتا يديها دفعت عظامه . فهرب النوم من عينيه . ولكنه لم يفتحهما . فهو مذنب ويستحق السجن . فأرجعتها بيداها . فأراحتها استعدادا لخوفة أخرى . فاشتق عليها . وبتقنيه خفيف أرجاع يديها . فاصطدمت فخذاه براحتي يديها . وألقتها بثقل على الأرض . ثم يأس . وبيد تحت السماء على كتفها . وبيد وضع بالنجوم ليل شعرها . فتبع شعرها وبرق . وابيض وتلألأ . وأوته النجوم في عز الظهر . ورعشة فضيحة . فقطة فاتكة . فركزة فوحوة . فوكمة فاتكة . فلامة فدامة . فصلح فسلام . فلا حرب في حب لا يشرب فيه الحبيب الخمر مع الثر . والزواج عشرة . والعشرة محاماة لا معاهدة . والمحاماة لا تحتمل الحساب والقسوب . وكل خطأ إذا سب الصواب فهو ضرب من الصواب . وهو وعدها بألا يتكرر ما حدث . فيتسلط وحافظ تولستوي على وعده لها . وأفطر وتغدى وتعشى بها ومعها . وأكلها قبل أن تأكله . وذات مساء وهو يقرأ قصة لبوشكين . سمع قلمها يضرضر بصوت مرتفع فوق كراسة يومياتها . فانحنى فوق كتفها وقرأ . « فهمس ليوفوشكا برقة القطة وأسلوبه الملوي . أنه من رابع المستحيلات أن يكتبي بجباته الأسرية . وأنه بحاجة إلى اهتمامات ومشاغل أخرى » ..

فخطف منها القلم . وأضاف خط يده . « لست خاطط إلى أي شيء أو أي شخص ما عدا نفسك أنت . فالشخص جاحبا . ولم تستطع أن تطرقه بعض بذراعيها إلى أن تكسر ضلوعه . فاكتفت بتقبيله . وقبله قبلة تحسدها عليها القبلة الذرية بكل الكهربائيا وبروتوناتها ونيوتروناتها . ولولا لطف الله ذات تولستوي

الحقيقة في مزاد علني

ثم رجع العجل إلى بطن أمه . وعاد تولستوي إلى الزوجات والأولاد . فرجعت ربة الى عادتها القديمة . وعادت سونيا إلى قيودها الأصلية . ولسعتها الظنون ولدغتها الشكوك . وزحفت عليها الهموم وسلقتها الغموم . وانتشت الأرض ونبت مرورها . ثم انتبهت الأحوال الزوجية . وخرج هو وهي خروج البدر من خلال السحاب . ثم من جديد تحكر صيفو الحو وتكثر نقاء الحب . ثم من جديد انشح الضباب وساء الصفاء . وتلقفا العداء . ثم استقفا عطر البلاء . وزفير ثم شهيق . والتقاص ثم انبساط . وشدة ثم فرجة . وفرحة ثم غصة . وحمة ثم نقمة . وضحك ثم بكاء . ورأس ثم رجاء . وسخط ثم رضا . وهلم جرا ..

ودار حولها . ودار حول نفسه . ودارت حوله . ودارت حول نفسها . ودوحها ودوحته . وأدهشه تقلبها وتعبرها . ونسي تقلباته وتغيراته . وفزع من تجواباتها من الأرض إلى السماء والعكس . ونسي تجواته البيلوانية من الأبيض إلى الأسود والعكس . وفاته الأهم وهو أن إعجاب العاشقة بلا حدود بالمعشوق سبب من أسباب التغير والتقلب والتبدل والتحول . وإعجابها الشديد به لا يمكن أن يدخمه بنجام . وحبها المهول له لا يمكن أن يقوده برمام . فما العمل ؟ .. أن يرضى بما تجريها ويشرها .. وهذا محدث .. أن يحاول قدر الإمكان فهمها . وهذا مستحيل المستحيلات . لأنه رجل وهي امرأة .. وامرأة غير عادية

فسونيا لها عقل لا يتوقف عن العمل ولا يعرف الملل . ومع يدور بمحركات لا تكف عن الدوران . ولها كرة لا تعرف بطاريتها أبدا .. وهي تجد متعة فائقة في الكشف عن خبايا نفسها . ثم تحليل كل كبيرة وصغيرة منها . ثم تشريح كل خلجاتها . ثم عصر وتصفية كل هواجسها . ثم تقدير خواطرها قشرة قشرة . ثم فصها فصا فصا .. ثم تسجيل نتائج فكرها بقلمها .

والخلاصة أنها معقلة في الفواء بحبال الهوى . وتأرجح من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . تارة تحب زوجها بجنون . وتارة تبغضه بهستيرية . تارة تود لو كان دمها حبرا وجلدها ورقا وأصابعها أقلاما . لتكتب له بكل قطرة من دمها كلمة « أحبك » فوق كل مليمتر من جسمها . وتارة تود لو كانت بعين عمياء وأذن صماء حتى لا تراه ولا تسمعه . تارة تتلهف عليه . وتارة لا تطيقه . تارة ترجو وتتمنى أن تذيب شخصيتها في شخصيته . وتارة تخشى ان تزى الدنيا من خلال عينيه خوفا من أن تتلاشى معالم ذاتيتها ..

تارة تعلن فرحتها في العيش في ظل رجل عظيم . وتارة تصرخ بظلمها .. « أحس برغبة جامحة في أن أتمارض سلطي عليه . لمجرد أن أراه يفتح لي » ..

تارة تشكو من برودة الجليدي . وتارة تشكو من لهيب الركان . تارة تجده عجوزا وحملا وأنانيا وشيطانا شهوانيا وحقا وخافية . وتارة تعترف بين قلبها « هناك خطأ – وما أكثرها – أحس فيها أني مريضة جدا .. أتعذب وأنا أنظر إليه .. أتعذب وأنا أستمع إليه .. أتعذب وأنا الى جواره . غاما كما يتعذب الشيطان وهو إلى جوار قديس » ..

ومن سوء حظها وحظها أن زمن الحب كان يعاندها ويباريها .. فساعة حبه غير مضبوطة على ساعة حبها .. فعندما تقدم عقارب ساعته تتأخر عقارب ساعتها . أو العكس . وعندما تتابه نوبة حب وغرام حوفا . تتابها نوبة بغض ونهرب منه . وعندما تتابه نوبة غيرة وشك . تتابها نوبة ثقة واطمئنان . وعندما تتابه نوبة سخط عليها . تتابها نوبة رضا عنه . وعندما يود لو علق قلبه على الهلة وشنقها به . تود لو انشقت الأرض وبلعته لتريح منه ومن عذابه . فعندما يكون هو في القطب الشمالي تكون هي في القطب الجنوبي . وإذا تصادف أن التقيا عند خط الاستواء . فسرعان فقط يستوي حبهما ويتضبط توقيته

ولما زاد من توتر العلاقات بينهما الصدق ثم الصدق ثم الصدق . فإذا كانا يختلفان في أشياء كثيرة فإنهما يتفقان في شيء واحد هو . حبهما الأعمى للحقيقة وبور الحقيقة . ولأنهما متفقان بالحقيقة صمح كل منهما للآخر بقراءة يومياته . وهكذا تمنى حسن النية تحولت اعترافات كل منهما إلى قرارات اتهام ومرافعات . وتحولت صفحات يومياتهما إلى ساحة محكمة يقوم فيها كل منهما بدور القاضي والمتهم والشاهد على . ومثل النيابة وتحامي الدفاع والشهود . وعادة ما لم يجرؤ أي منهما أن يقوله للآخر وجها لوجه . كان يقوله له قلما للقلم . ثم بعد أن يريح كل منهما قلمه ينتظر بقصرف مرضي ورزين رد فعل الآخر وحكمه عليه . أهو مذنب أم بريء . وإذا تعمد تولستوي ألا يرد على زوجته لتكوي بنارها فهو يتجح في ذلك إلى أقصى الحدود . وتطلب سونيا فرق جمر الجرة وتكتب : « ليوفوشكا لم يقل لي شيئا . ولم يلمح بكلمة في يومياته ..

هل قرأ ما كتبته ؟ لا أعرف .. ويصدق وأماله أعترف وأقر أن ما كتبته عنه كان شيئا في منتهى الدناءة والسفالة . إني أخجل من إعادة قراءته ..

وتقتضي هذا الاتفاق كانت حياة تولستوي وسونيا تدور في مجالين . مجال الحديث والكلمة المنطوقة من جهة . ومجال القلم والكلمة المكتوبة من جهة أخرى . والمعارك التي يكسبها أحدهما على الورق يخسرها الآخر . ومن الطبيعي ألا يرضى هذا الأخير بذل الهزيمة . وبساعة يقابل جبهة القتال من الورق والحبر إلى الجبهة الأخرى . ويقول بلسانه مالم يقله بقلمه . فتنشب معركة جديدة . ولو كان أي منهما يريد أن يقتل حب الآخر له .. لو إلى غايته باضراره انتحت في تجربة نفسه . والعجيب والغريب أن حبهما قاوم هذه الزلزلات في الصدق والإخلاص . فالحب يصنع المعجزات .

وعاد الزوجان العجيبان بسعادتهما إلى عزيمتهما .. ومعهما ثمرة حبهما وبغضهما .. جين يشق طريقه وسط الظلمات .. ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها